بديهيات نقديــــة

د. داود سلـــــوم

كلية الآداب ـ جامعة بغـــداد

ان شرح بعض الاوليات في النقد الادبي قد يكون أصعب من التعـرض للموضاعات النقدية المعروفة وان البديهيات النقدية على عكس بديهيات الهندسة فهي في النقد تحتاج الى البرهان المادي في الوقت الذى لاتحتاج نظريات النقد وتطبيقاته الى جهد كبير للوصول الى حقيقة شبه مطلقة حولها في احيان كثيرة .

وفي هذه المقدمة سنحاول الاجابة عن عدد من الاسئلة التي تبغي شرح هذه البديهيات النقدية وفي سبيل البرهان عليها فلابد لنا من الافتراض النظرى الذى قد لايقنع كل واحد ، ولايبدو مقبولا لكل وجهة نظر . ومعنى ذلك ان البديهيات النقدية ستبقى ابدا قابلة للنقاش والافتراض والبرهان الجديد الذى يبرهن على صحتهـــا .

النقد موجود كما ان الادب موجود **ولكن ماهو النقد؟** وكيف نعرفه ؟

ببساطة وسهولة يمكن ان نعرف النقد بأنه تقويم النص الادبي ، في محاولة لاظهار النموذج الاكمل الذى كان يجب أن يكون . ففي الوقت الذى يسجل فيه الكاتب مادته عما هو كائن في الادب فهو في الواقع يؤرخ لتاريخ الادب ولكنه اذا ماخرج عن هذه الدائرة الى دائرة تبيان المحاسن ومكامن اسرارها والمساوىء واسبابها وانواعها وتعرض الى رسم الصورة المثلى التي كان على الاديب ان يتبعها في المضمون والشكل كان ذلك هو النقـد .

وكما ان للادب تاريخا يجمع حصيلة نتاج الشعراء والادباء على اختلاف جودتهم ومراتبهم وحيواتهم في الامة الواحدة أو في مجموعة من الامم ، فكذلك للنقد تاريخ يجمع مجمل النظريات والآراء النقدية ويعدد مبتكريها وناقليها ومقلديها ويعمد تاريخ النقد الى كشف الاصالة النقدية والشخصية النقدية الممتازة والفذة والشخصيات المقلدة والدائرة في فلك كل فكر نقدى باهر من الذين تمكنوا من استنباط بعض المقاييس او تغييرها أو رفضها واحلال مقاييس جديدة ، وتاريخ النقد لايشمل تاريخ أمة واحـدة وانما قـد يشمـل تاريخ النقد في أمم عدة . وهذا النوع من الدراسة التاريخية المقارنة قد يكشف لنا عن سير الفكر وأولية ظهوره واصالة أمة دون أمة بين شعوب الارض .

ولنضرب مثلا نميز فيه بين الخلق الادبي والنقد الادبي ولنرى ماهو الحد الحد الفاصل بين الادب والنقـــد :

جاء في قصص ايسوب أن ثلاثة من الالهة خلق كل منهما شيئا ، فالاول خلق الثورة والثاني صنع بيتا والثالث خلق الانسان ، واراد هؤلاء الالهة ان يعرفوا قيمة ماخلقوا واحتاجوا الى من يخبرهم عن محاسن أو مساوىء ماصنعوا فاستشاوا الها آخر فقال لهم :

لوكنت انا الذى صنعت الثور لخلقت قرنيه تحت عينيه لانه لايرى موضعهما كما هو الآن ولايدرى أين يضعهما حين يريد أن ينطح بهما .

وقال : ولو كنت انا الذى صنعت البيت لجعلت له عجلات كي انتقل به عن جار السوء اذا ما كان جارى سيئا .

ثم قال : ولو كنت انا الذى خلقت الانسان لجعلت له نافذة تطل على قلبه لاعرف بالنظر منها اذا ما كان ذلك الانسان طيب النية والطوية أو سيئهما .

فالحد في هذه القصة بين « المبدع » أو الفنان وبين « الناقد » هو ان « المبدع » قد صنع الشيء كما اوحت له قدرته ووقف عند ذلك اذ اعتقد بانه قد وصل الى الكمال في صناعته وبلغ آخر المطاف .

أما الناقد « فيأتي دوره في عملية اكمال ما ابدع الفتان ومحاولة تلافي النواقص التي ظهرت في عمل الفنان والمبدع .وعلى هذا فان هوميروس في الالياذة والاوذيسا هو المبدع والخالق والفنان ، وارسطو في كتاب « الشعر » هو الناقد الذى يبغي الى اخراج الادب في صورة أتم وأكمل .

ماذا يعالج النقد اذن ؟ وما هي موضوعاته التي يتعرض لها . ؟

فالصانع مادته الحديد والنجار مادته الخشب ، فما هي المادة التي يتعامل بها « الناقد » ويعمل فيها ؟

يعالج النقد الادبي عند امة ما ، ادب تلك الامة وما انتجته عبقرية شعرائها الادبية لمجموع اجيالها . وبسبب ظروف اجتماعية وسياسية ودينة اختلفت الانواع الادبية بين امة وأمة . فقد ظهرت الملاحم عند أمة وظهر النص التمثيلي عند اخرى ، وقد ساد الشعر الغنائي في مجتمع ما وتخلفت بقية الانواع الادبية عن الظهور فيه ان الكشف عن عوامل الظهور او الاختفاء ليس هذا مجاله .

وانما نتحدث هنا عن الواقع الفعلي وما يسود من انواع ادبية في مجتمع وعمل النقد في ذلك النوع الواحد أو الانواع المختلفة .

وحين ننظر في الانواع الادبية العربية ونعرفها كما هي ، نعرف ايضاً ان عمل الناقد الادبي قد اقتصر على تلك الانواع في عصر لم يتعرف فيه العرب بعد الى انواع ادبية اخرى تعرفا عميقا .

وان التقسيم البسيط للنتاج الادبي الى شعر ونثر يسهل علينا تحديد تلك الانواع فالعرب قد عرفوا الشعر ، ولكنهم عرفوا الشعر الغنائي فقط . وعرفوا منه اغراضا متعددة كالحماسة والمدح والرثاء والغزل والهجاء والوصف وشعر المجون والدعابة ، وعرفوا لونين من الغزل : الغزل بالمؤنث والغزل بالمذكر ، وعرفوا سته عشر وزنا لهذا الشعر الذى يتكون من المقطوعة ، والقصيدة والبيت والقافية ثم عرفوا الموشح وهو ترتيب جديد للوزن القديم وعرفوا الادب الشعبي كالمواليا والعتابا وما شابه .

وقد عرف العرب النثر في دور بداوتهم الاولى على شكل خطب وامثال وحكايات ثم عرفوا — في دور البعثة والفتوح — الرسالة والخطابة السياسية والدينية وعرفوا النثر الجغرافي والتاريخي والنص القرآني والحديث النبوي والمقامة والنادرة والقصة . وكان على الناقد ان يعمل في هذه المادة والايتعداها ، وفي اغلب الظن ان نقاد العرب كشعرائهم وكتابهم لم يكونوا يعرفون بوجود اي نوع آخر ، كالملحمة والشعر الموضوعي القصصي وغير ذلك من انواع ادبية ، شعرية أو نثرية ، كالرواية الحديثة والقصة القصيرة بمفهومها الحديث ، ولم يعرفوا كذلك المسرحية الشعرية او النثرية . ولذلك يمكن ان نقول أن موضوعات الناقد اليوناني والروماني كانت اكثر عددا واكثر تنوعا تبعا لتنوع الانواع وان اختلاف النوع ادى بالنقاد الى الاختلاف في صيغ النظريات المطروحة ، وان هذا الاختلاف بين الصياغة النظرية لم يمنع نقاد العرب ان يلتقوا مع نقاد الامم الاخرى في المسائل الكبرى والقضايا العامة كمسألة السرقات الادبية او النظر الى الجودة الادبية مجردة من الارتباط بالاديب أو مسألة القديم أو الحديث أو بعض القضايا الادبية الكبرى .

كيف يعالج الناقد النص ؟ ومن أين يبدأ ؟ وما هو نقد المضمون ، ونقد الشكل ؟

مهما اختلفت جنسيات النقاد واختلفت الامم فان النظرة في الاساس الى ذات الادب كانت واحدة ولم تزل كذلك .

فالنص الادبي هو حصيلة من المفردات والالفاظ المركبة في اساليب ، وهذه المفردات والاساليب انما هي تعبير عن المعاني الكامنة في النفس الانسانية ، وعن طريق هذه الالفاظ يتم الاتصال بين الادب والقارىء كما يتم الاتصال بين انسان وانسان بوساطة المفرد العادي في اللغة العربية

لذلك فأن مسألة النظر الى النص الادبي على اختلاف انواعه هي واحدة عند كل النقاد وعند كل الامم . فالنص الادبي في العملية النقدية يفكك الى اجزائه الاولى : المفرد ، ومجموع المفردات مجتمعة في اساليب ، ويسمى هذا بـ « الشكل » أو الهيكل الذى يحتوى على المعاني والافكار والآراء .

والمعنى ومافيه من عمق وضحالة وتعدد في المعالجـة ويسمى هـــذا بـ « المضمون » .

ومهما كان غرض القصيدة الغنائية ومهما كانت القصيدة الموضوعية أو الملحمة او المسرحية أو القصة أو الرواية فهي في النهاية يمكن ان تبدأ من المكونات الاولى وهي « الشكل » وفيه الالفاظ المستعملة مفرده أو مركبة « والمضمون » وفيه المعاني . وقد تختلف الانواع الادبية في بعض الشكليات الجزئية ولكن هذا لايخرجها عن كونها مكونة من شكل ومضمون . فالوزن الشعرى الذى يميز الشعر لايخرجه عن كونه مجموعة من الاشكال والمضامين وكذلك اختلاف الغرض الشعرى وتعدده لايخرج النص الشعرى عن دائرة النقد الذى يعتمد في الاساس على التعامل مع اللفظ والمعنى في ذلك النص . وقل مثل هذا عن المسرحية الشعرية أو النثرية أو الرواية أو القصة أو أى نص ادبي مهما كان نوعه وعائلته التي ينتمي اليهـــا .

يتعامل النقد اذن مع الادب كمادة ويقف الناقد للشاعر في موقف المقنن والراصد والمقوم ، **ولكن ما الذي ظهر قبل الآخر ؟ هل ظهر الادب قبل النقد ؟ وهل ظهر الشاعر قبل الناقد ؟ .**

لعل قارىء هذه المقدمة سيقول بسرعة وببساطة انها البديهية النقدية التي لاتحتاج الى برهان هي :

« ان الادب ظهر قبل النقد وان الشاعر والاديب ظهرا قبل الناقد ! »

هل يمكن البرهان على هذه البديهية النقدية ؟ هل يمكن ان نقول ان وصف الموجود لايتم قبل وجوده ؟ وبلغة بسيطة : ان الناقد لايمكن ان يبدأ عمله الا اذا وجد الادب . كما ان النجار لايمكن ان يصنع الكرسي من الخشب الا اذا كان الخشب بين يديه ؟ هل يكفي هذا ان نسلم بالبديهية النقدية ؟ هل ان تصور النجار للكرسي يختفي اذا اختفى الخشب ؟ وهل يعوز الشاعر قبل ان يكتب ملحمته او قصيدته الحس او التقدير الذى به قدر الموضوع واللفظة والوزن والقافية ؟ هل النص

الادبي يفرض نفسه على الاديب أو أن الاديب هو الذى يصب عمله في القالب الذى يريد ؟ أليس عمل الشاعر او الكاتب أو الاديب هذا ضربا من النقد ونوعا من عمل الناقـــد ؟

فاذا افترضنا ان كل شاعر او اديب هو ناقد في تقديره لما يريد كتابته وكيفية كتابته فانه ولاشك ناقد قبل ان يكون شاعراً أو كاتبا . ولذلك فان البديهيـــة النقدية الآن قد تغيرت وأصبح من الممكن أن نقول :

« ان النقد قد ظهر قبل الادب »

ولما كان النقد قد ظهر قبل الادب فان بديهية اخرى يمكن أن تضاف ، وهي : « ان الناقد قد ظهر قبل الاديب » والبرهان في ذلك ماقاناه قبل قليل .

ويمكن ان نناقش بديهية اخرى لنرى مصداقها اذا ماسألنا هذا السؤال :

هل ظهر الشعر قبل النثر أو ظهر النثر قبل الشعر ؟

يبدو أن البديهية الّتي تقفز الى الذهن دون انتظار جوابها هي :

« ان النثر قد ظهر قبل الشعر » .

ويبدو الدليل سهلا لقبول هذه النظرية ، فان الانسان قد تكلم قبل ان ينظم الشعر ، وقد تكلم الانسان او مرة النثر ، فأحرى به ان يعرف النثر قبل الشعر ، ثم أن قوانين الشعر تجعله اكثر تعقيدا في التعلم والمحاكاة . وكل هذا يبدو منطقيا اذا مافكرنا في ان « النثر » الذى نتكلم به والنثر الذى نكتبه هو واحـد .

ولكن السؤال الذى نسأله هنا : هل هما واحد ؟ وهل ان الانسان الذى لايقرأ ولايكتب وهو يتكلم النثر مقتدر على كتابة خطبة او رسالة او كتابة قصة او رواية بالنثر الادبي الراقي ؟ ومالفرق بين نثر الكلام ونثر الادب ؟

ان اللغة اليومية لغة غير منتقاة وغير مرتبة وغير منفعلة ، وتعبر عن حاجات دنيا بسيطة وضرورية اما النثر الفني او العلمي فهو يحتاج الى ثقافة ودراسة ودراية ومعرفة بامور كثيرة فالكاتب التاريخي لايولد مؤرخا وكذلك قل عن كاتب

الجغرافية والعلوم والفقه وكاتب الدواوين . ان كل هؤلاء الكتاب يحتاجون الى ثقافة ترقى بهم الى الحصول على هذه الرتب والمراكز ولاتكون هذه الرتب والمراكز الا في مجتمع متحضر بعيد عن البداوة والبساطة والبدائيـــــة .

وان تاريخ الادب يظهر لنا ذلك ويبرهن عليه ، فقد ظهرت ملحمة هوميروس قبل فلسفة افلاطون وظهر الشعر الجاهلي قبل ظهور كتب التاريخ والجغرافية والنثر القرآني والحديث النبوى وكتب الفقه . لان الشعر في هذا يعتمد على الانفعال والعاطفة والخيال وهذه متوفرة للانسان بدائيا ومتحضرا واميا وقارئا والنثر والفني او العلمي يحتاج الى فكر وثقافة وهذان لايتوفران الا في الحضارة والتقــدم الانسانـي .

ولذلك يمكن ان نعكس البديهية النقدية الاخرى ونقول :

«ان الشعر ظهر قبل النثر في الحضارات الانسانية»

ونقبل ذلك اذا ما قبلنا الدليل الذى بسطناه سابقا . ولعله من عمل النقد ان يمضي في التعليل لكثير من الظواهر اذا ما عجز عن البرهان القطعي فالناقد الواحد او النقاد المختلفون يمكن ان يضعوا عددا كثيرا من النظريات لظاهرة محيرة من الظواهر المتعددة .

فالناقد قد يحاول ان يعرف مصدر هذا الادب الذى يتعامل معه ويعلل سبب ظهوره عند الانسان . فاذا كان الانسان حيوانا ناطقا فهل يكفي نطقه هذا وحده لظهور الادب او ان هناك من الدوافع الخفيّة مادفعته الى اتخاذ الادب وسيلة للتعبير كما اتخذ الرسم والنحت والرقص والموسيقى ؟

فكيف ولماذا ظهر الادب في وجدان الانسان البدائي المعاصـر ؟

يطرح النقاد والفلاسفة من خلال تأملهم في الموضوع عددا من وجهات النظر المختلفة وان وجهة نظر واحدة لايمكن ان تكون قاطعة ولايمكن ان تكون البرهان الوحيد على كيفية ظهور الادب ولعل وجهات نظر اخرى يمكن ان تطرح الى جانب ماطرح لحد الان .

اقدم التعليلات تعليل الفيلسوف ارسطو في كتابة (الشعر) حيث افترض ان الادب والفن هما ظاهرتان **لمحاكاة الطبيعة وتقليدها** . فالشاعر والكاتب والرسام — والراقص والموسيقى كل منهم اراد ان يثبت مشهدا من مشاهد الحياة والطبيعة ويقوم برسمها باداته الخاصة ، فالاديب يقوم بتثبيت الطبيعة بالمفردات مستخدما اللفظة والاسلوب البلاغي والخيال والعاطفة للتعبير عن الفرح والغضب والرضا والحماسة والحب والخوف ..... الخ .. وكذلك الفنان . وان الاديب والفنان وهما في عملهما ذاك حاولا ان يتحسسا الطبيعة ويجملا الحياة ويرسماها كما يجب ان تكون لاكما هي في الواقع وهذا هو الفرق احيانا بين الادب والواقع .

وكما تطورت العلوم تطورت كذلك التفسيرات حول الموضوع . فان ظهور **علم الاجتماع** الذى ادى الى دراسة المجتمعات البدائية اعطى للموضوع تفسيرا آخر هو : **ان المجتمع البدائي يميل الى تقسيم العمل** داخل القبيلة او الوحدة الاجتماعية ففي المجتمع البدائي تجد الفرسان المحاربين الذين يدافعون عن القبيلة والى جنبهم نجد الصيادين الذين يقومون بالحصول على الصيد لطعام القبيلة ، وعمل النساء — العناية بالاطفال واعداد ما يحتاجه البيت من ادوات والات . وتسقط في المجتمع طبقة مسنة لم تعد بمقدورها الصيد او الحرب او خدمة العائلة . ويرى اصحاب هذه النظرية ان هؤلاء الكبار اصحاب الخبرة والتجربة استعملوا خيالهم في اعادة صياغة الاحداث التي حدثت او وصف الاحداث التي تحدث للقبيلة وقد يقوم هؤلاء الناس على التفرغ للسؤال من قوى الطبيعة الخارقة : النصر على الاعداء ومن هذا الجهد الفكرى والنفسي واستخدم العاطفة والخيال مع اللغة خلق الادب بشكله الاول البسيط . فهو في عرف هذه النظرية صيغة من صيغ الخدمة الاجتماعية ونوع من العمل شارك به الكبار مع بقية افراد القبيلــة .

وان هذه النظرية لايمكن ان تقبل هكذا بشكلها المطلق ولايمكن ان تمر دون نقاش. الايجوز ان يكون بين الفرسان او الصيادين من له القدرة على صياغة هذه الاقوال المنمقة التي تصف حياة القبيلة ومجتمعها ؟ الايمكن ان يكون بين النساء من الامهات الشابات من لها القدرة على القول والوصف الادبي ؟

واضاف علم النفس عند ظهوره وظهور نظرياته وجهة نظر اخرى جديدة .

فقد ظهرت في **علم النفس** تفسيرات لسلوك الانسان وأوجد مايسمى **بعقدة النقص او عقدة الغرور (النرجسية)** ويرى اصحاب هذه النظرية ان الفنان ان هو الارجل غير سوى يعيش في صراع مع مجتمعه وبيئته من خلال هاتين العقدتين . وان محاولة التعويض في حالة الشعور بالنقص او ان محاولة التعالي في حالة الشعور بالنرجسية هما المسؤولان عن الابداع الادبي والخلق الفني .

وهذه النظرية لايمكن ان تمر أيضا دون نقاش فكم من البشر غير الاسوياء لم يكونوا ادباء او شعراء . وكم من البشر السوى من يمكن ان يكون اديبا دون صراع ولا يمكن ان نجزم بحدوث خلل نفسي في حياة كل شاعر او كاتب هكذا بشكل مطلق . فالمطلق لايوجد في سلوك البشر . وحاول اصحاب **الاقتصاد** ايضا ان يدلوا بدلوهم في هذا الشأن . ولعل علم فلكور الشعوب قد ساعد على مد الاقتصاديين والسياسيين بهذه النظرية تقول النظرية الاقتصادية ان « العمل » هو اساس نشأة الفن . وليس كل نوع من العمل ، وانما العمل الجماعي الذى يقوم به مجموعة من الناس يحاول ان يحثّ بعضهم بعضا او يفاخر او يغالب او ينافر قسم منهم قسماً آخر فالادب قد نشأ مع الرعاة — والمزارعين وسقاة الماء الذين يمتحون الماء من الآبار ومع الملاحين وغواصي اللؤلؤ ومع جماعة المسافرين في الصحارى وما الى ذلك . وهذه النظرية كما قلنا اعتمدت على خدمة علم الفلكلور وجمعه كثيرا من قصص واغاني الشعوب البدائية التي سجلت اوقات نشاطهم الاجتماعي وعملهم سوية واذا كان الفن مقرونا بالعمل ، فلماذا نجد ان عددا لايحصى من الأدباء والشعراء لايمكن ان يجودوا اذا ماشغلتهم مشاغل الحياة اليومية وعاشوا وسط مجتمعهم ؟ وفي الادب العربي لانكاد نجد شاعرا اسلاميا واحدا ممن تفرغ للشعر حياته كان يعمل او اتخذ مهنة او خدم في الدولة فكيف نفسر هذا ؟ ولعل التفرغ احدى الضرورات للخلق الفني والابداع .

من هو الذى يقوم على التقويم والتقنين والتفسير للظواهر الادبية ؟ هل نحتاج في النقد الى مانحتاج اليه من خدمة الطبيب في الطب او المهندس في — الهندسة ؟

هل كل جهد ذاتي غير منظم وثقافة غير رصينة يكفي لخلق من يقوم على تقويم الادب ؟ اذا جاز هذا فهل يجوز ان يكون طبيبا من لم يدرس الطب بالطريقة الصحيحة وان يكون مهندسا من لم يعرف اوليات الهندسة ؟

اذا كان الجواب بالنفي بالنسبة للطبيب والمهندس فيجب ان يكون كذلك بالنسبة للناقد . ولكن لماذا الناقد ؟ ومانفعل بخدماته ؟ فالشعر موجود والنثر الفني موجود الايكفي ذلك لنا ام ان الناقد فعلا ليؤدي لنا بعض الخدمات التي لايمكن ان نقوم بها نحـن ؟

نرى من خلال ثلاث نقاط سنشير اليهاهنا انه يمكن ان نصل الى حقيقة مطلقة توجب قيام شخصية الناقد في أي مجتمع من المجتمعات الانسانية ذات النشاط الادبي . وان النقاط هي : اختلاف الذكاء الانساني ومستوياته بين القراء والتخصص الدقيق في العمل وكثرة النتاج الادبي الذي يقتضي ضرورة للاختيار .

فاذا رفضنا قيام الناقد واستعضنا عنه بانفسنا فقط اقتضى ذلك الاعتراف باننا كبشر ذوو قدرة متساوية في القراءة والتذوق والاحساس بالجمال الادبي ورصد الخطل الفني في العمل الادبي . وفي النقاش النظري ولو كنا كذلك لكان كل الناس نقادا جيدين ولكن الواقع الفعلي اننا نتمايز في قدراتنا كبشر في الطبيعة ونتمايز ايضا في قدراتنا كمختصصين في العمل الواحد والمهنة الواحدة فالاطباء ينفاوتون ويتفاوت كل ذي خبرة عن مثيله فاذا اختلفنا في قدرتنا على القراءة والتذوق فقد يفوق بعضنا بعضا في ذلك وان بعضنا الذى تفوق في قدرته على الادراك السليم والاحساس — بالمحاسن والمساوىء هو الذى يمكن ان يكون اقرب الى مهنة الناقد من القارىء الاخر الذى لايحسن الا القراءة ولايعرف لماذا يشعر بالجمال والهزة هنا ويشعر بالقبيح والنفور هنـــاك .

وفي كل المجتمعات المتحضرة يكثر العمل ويتشعب وبذلك يصبح الانسان لايمكنه ان يقوم باكثر من عمل واحد فالـفلاح لايعمل في الارض ويعمل في الصناعة والتاجر لايمكن ان يكون فلاحا وبذلك لايمكن ان يكون كل قارىء له مهنة اخرى يعيش منها ناقدا متخصصا متفرغا لعمل النقد بحيث يكون ذلك شغله الشاغل . وقد ظهر التخصص بين علماء العربية بشكل مبكر مع تقارب فروع الثقافة العربية ، فهناك المؤرخ والجغرافي والنحوى واللغوى والفقيه ومؤرخ الادب والبلاغي والناقد . لاشك ان للقابلية والميل والمزاج اثارا بارزة في تخصص شخص ما في علم ما ولذا فان الناقد متخصص في حقله كأى متخصص اخر وان الناقد وحده يتمكن ان يقطع بالحقيقة الادبية وان يعطينا الصورة القريبة والحكم القطعي الذى نثق به .

وفي المجتمع الحديث وبعد الطباعة الحديثة واختفاء الكتب الخطية وازدياد عدد الكتب وسرعة وسهولة اخراجها وتوزيعها كل ذلك خلق للقارىء الحديث مشكلة عويصة من حيث قدرته على الاختيار والتمييز فان التأليف في ضروب المعرفة الانسانية قد تشعب وتفرع الى مالايحصى من الفروع وتعددت الانواع الادبية ، وساهم العلماء والباحثون في فروع المعرفة العلمية بالتأليف للقارىء وكثرت الصحف والمجلات فالقارىء الذى قد ادمن المطالعة قد وقع في حيرة عما يقرأ وماذا يقرأ ، فالاختيار صعب والاستيعاب لكل مايطبع ويستهويه اكثر صعوبة فهوليس قارئا متفرغا وانما شخص يعمل وعليه ان يعيش وانما يتخذ القراءة هواية او يتخذها وسيلة لقراءة مصادره ومراجعه ، وكل قارىء يطمح الى احسن الكتب وأجودها ولايريدان يضيع وقته وماله في كتاب لاينفع ، فمن هذا الذى سيقوم له بعملية الاختيار والتنبيه على العمل الجيد والتحذير من العمل الردىء اختصارا للوقت والجهد واقتصادا في المال .

فالناقد المتخصص هو اذن « الخبير » في الحضارة المعاصرة الذى يقوم عمله على هذا فهو يقوم بتقريب كافة الاعمال من خلال الاستعراض — السريع وهذا

في الغالب عمل ناقد الكتب في الصحافة ، وهناك نوع من النقاد من يقف نفسه على نوع من الانواع الادبية كالشعر والقصة والرواية والمسرحية ، ونوع آخر من يقف وقفات طويلة عند عمل واحد وبعض النقاد قد يجمع بين عمل مؤرخ الادب والناقد المتخصص في معالجة الشكل والمضمون . ان ماطرحناه من هذه الحقائق يوجب قيام الناقد ويوجب تفرده في عمله ويوجب الالتزام بملاحظاته فهي اكثر نضوجا من ملاحظات القارىء العابر الذى لايلتزم بمهنة الادب وانما يكون من خارج الحقل يستخدم ذوقه الشخصي وخبرته القاصرة في الحكم الادبي .

ان هذا يقودنا الى الحديث عن « شخصية » الناقد الذي نرضى بحكمه ، **فما هي صفات الناقد الذى نرتضي اقواله وهل نتمكن من صناعة «الناقد ؟**

اننا نتكلم عن الناقد المتخصص الذى نبيح له ان يتعرض الى الاعمال الادبية التي نحترمها ونعجب بها وان يتكلم عنها سلبا او ايجابا ومع ذلك ترانا نقبل باحكامه واحيانا على مضض . لقد اعطينا حق تقويم تراثنا القديم والمعاصر فكيف سلمنا له بذلك ؟ وما هي الشروط التي يجب ان تتوفر في « الناقد » حتى نعطيه هذا الاسم ونقلده شرف تقويم العمل الادبي وتقبل بعد منه اراءه ونجعله الحكم الفصل ؟

لاشك ان عددا كبيرا من كبار النقاد في الحضارات القديمة لم يعرفوا — الدراسات المنهجية التي نعرفها اليوم بمعناها الاكاديمي ولكنهم كانوا أكثر النقاد اثرا في الفكر الانساني ويكفي ان نذكر ارسطو وهوراس ولونجنيوس وغيرهم .

فليس من شروطه اذن ان يكون دارسا اكاديميا ، قد تخرج من جامعة منظمة ونال شهادة ما ولكن هذا لايعني ان « الناقد » يمكن ان يوجد دون دراسة جادة من خلال الجهد الشخصي الجاد او التلمذة الفكرية على يد مدرسة فكرية او شخصية فذة وبدون هذا الجهد والجد والدراسة لايمكن ان يخلق الناقد .

ولكن يجب ان يكون من بين الشروط التي تساعد على خلق الناقد الجيـــد الثقافة العميقة الواسعة والمعرفة الشاملة والدقيقة لتراثه الادبي ونتاج جيله وان — انتقاص اية وسيلة من هذه الوسائل الادبية التي تجعل ثقافة الناقد ناقصة او ضعيفة تلقي ظلا على مستوى ذلك الناقد وقدرته .

فالناقد العربي عليه ان يعرف لغته كما يجب ان يعرفها الدارس الاكاديمي ويعرف تاريخها الادبي وتطورها اللغوى ونحوها وعروضها وان يكون على صلة بالمؤلفات الادبية وان يعرف مصادر موضوعه معرفة عميقة وجيدة .

واذا كان ذلك يفي بالغرض بالنسبة للناقد العربي القديم فان الناقد المعاصر في حاجة الى شيء اكثر من ذلك بكثير جـــدا .

ففي هذا العصر تقاربت الامم وترجمت الآداب وعرفنا انواعا من الادب لم تكن معروفة عند العرب وسمعنا باسماء نقاد لم يسمع بهم من قبلنا وقرأنا كتبـا لم يقرأها القارىء العربي من قبل اضافة الى ذلك ان الآثار في المكتبة العربية قـــد ازدادت وتنوعت عما كانت عليه في القرن الرابع والخامس الهجريين حتى التاسع الهجرى ، فأن مئات من الاسماء في عالم الادب قد ظهرت وعشرات الالاف من الكتب قد طبعت وعلى الناقد ان يكون ملما بكثير من هذا .

وتوجد اداب بعدد امم الارض كثيرا منها قرب منا اما بالترجمة الى العربية او بنقله الى لغة اوربية حية . وعلى الناقد ان يعرف شيئا من هذا .

واذا كانت اللغة العربية الوسيلة الوحيدة الى التعلم في الماضي فان الناقـــد اليوم يحتاج الى لغة اخرى لمعرفة مالم ينقل الى لغته وليصل الى المعرفة بسرعة حيث لايمكنه الانتظار حتى يترجم له مايريد ان يعرفه .

فالثقافة العميقة والشاملة والملونة والمتنوعة والمعرفة الجيدة بلغته وبأكثر من لغة هي سمة ضرورية لخلق الناقد الجيـــد .

ولكن هل تكفي الثقافة وحدها او يحتاج الناقد الى « مزاج » خاص و « نفسية » « معينة » و « خلق » له طابع متميـز ؟

رغم اختلاف العمل ، وطبيعة المهنة فان شبها مايقوم بين مزاج القاضي او الحاكم والعالم ومزاج الناقـــد .

يقتضي القاضي الحياد التام والتجرد والبعد عن الهوى والعصبية في حكمة القضائي والعالم لايدخل هواه ورغبته حين يحل مسألة في الجبر او الحساب وكذلك

« الناقد » الجيد يجب ان يتسم بنوع من الحياد ولا يميل مع الهوى ولا يتأثر بما يتأثر به بنو البشر في عواطفهم من حب او كره في الحكم على الجيّد او الردىء فأن انواعا من العصبيات قد ظهرت في تاريخ الانسان فالعصبية الدينية والعصبية المذهبية والعصبية القومية والعصبيّة للحديث كلها ضروب من بعض انواع العصبيّات التي يمكن ان يسود كلها او بعضها في مجتمع ما ويمكن ان تؤثر في حكم شخص ما على شخص ما.

فالناقد المتحيز يشبه القاضي الظالم ، واذا كان كذلك فانه يصبح اكثر خطرا من الحيوان المفترس ، كما يقول كونفوشيوس.

فقد رأى هذا الفيلسوف فتاة تبكي في واد اخضر جميل لان النمر قد افترس والد زوجها وزوجها وطفلها في ثلاثة شهور متوالية وحين سألها الفيلسوف : ولماذا تعيشين في هذا الوادى الذى يعيش فيه هذا الحيوان المفترس ؟

قالت المرأة : ياسيدى لانه لايوجد في هذا الوادى حاكم ظالم . فقال كونفوشيوس لتلاميذه سجلوا ان الحاكم الظالم اشد ضررا من النمر المفترس . فالناقد الظالم والمتحيز لعصبية من العصبيات اكثر خطرا في وادى الجمال الادبي من النمر المفترس حقا !

ولابد لنا ونحن نتكلم عن تاريخ النقد عند العرب والامم الاخرى ان نسأل السؤال التالي : **ماهي المحفزات التي ساعدت على ظهور النقد ونموه ثم ضعفه عند العرب ومن سبقهم ؟**

اننا لانملك سجلا كاملا للتراث النقدى عن الامم التي سبقت الحضارة اليونانية فقد ترك السومريون والبابليون ملاحم وقصائد شعرية وتراتيل دينية وكثيرا من نصوص المعاهدات والقوانين ولكن لم يصلنا عنهم شيء في النقد ولعله قد ضاع او لعل النصوص الادبية التي وصلتها كانت لها صفة دينية وكانت فوق مستوى النقد والنقاش .

وقد ظهر النقد عند اليونان بشكل ناضج وقد بلغ مرتبة عالية من التقنيـــن ورغم اختلاف البيئة اليونانية عن البيئة العربية الصحراوية الا ان ملاحظات قد وصلتنا عن الجاهليين لعلها قريبة جدا مما كان يمكن ان يدور في اذهانهم . ومع ان احتمال كون هذه القصص المروية منحولة ومزورة ولكنها في اجمالها تعطي صورة عن تصور البدوي للادب الجيد والشعر العالي .

ومع اختلاف البيئتين من الناحية الحضارية كما قلنا الا ان المحفزات التي تتلاءم مع كل بيئة كانت الدافع خلف ظهور النقد وتطويره .

المراجـــع

١ – **النقد الادبي ج١ :** داود سلوم ١٩٦٧

٢ – **النقد الادبي :** احمد امين . قاهرة

٣ – **الأدب للشعب :** سلامة موسى . قاهرة

٤ – **فن الشعر :** ارسطو . ترجمة احسان عباس

٥ – **قواعد النقد الادبي :** آربر كرومبي . ترجمة. محمد عوض محمد

٦ – **النقد (مقالات جمع مارلت شورد) ج١ :** ترجمة السيدة هيفاء هاشم . دمشق

7– C. Day Lewis , poetry for you, London,

8– P. H. Lyon, Discovery of poetry, London.

9– C. Day Lewis, poetic lmage., London.